

الساطور

بقلم / د. عماد الدين خليل

التقيته أكثر من مرة في « سوق المعاش » الذي يباع فيه الخضار والبقول عند منطقة «رأس الجسر» في مدينتي. كان يعمل مساعداً لأبيه وكانت ملامحه البلهاء تثيرني، وكنت أتحاشى أن أشتري منه شيئاً أو أسأله عن سلعة ما ... هذا النمط من الناس - كنت أقول في نفسي - قد يطلق قذائف يصعب الرد عليها، أو حتى وقفها .. وأنا ممن تخترق الكلمة النابية أو الجارحة لحمه وعظمه ، وتنزل كالسكين إلى جملته العصبية فتؤذيه الساعات وربما الأيام الطوال .

سنون متطاولة مرت كدت أنسى فيها الرجل، وسوق المعاش ، ومحاولة الاختراق الفاشلة ، ثم ما لبث حلم ، وربما كابوس ثقيل ، أن اقتحمني عبر إحدى الليالي كواحد من أبشع ما رأيت في حياتي من أحلام وكوابيس ، ولعلّه أبشعها على الإطلاق .

كان «سوق المعاش» غارقاً في جو رمادي مترع بالوحشة والاكثاب، تخترقه من حين لآخر سيارة محملة باللحوم أو الخضار .. يخترقه أيضاً بعض المارة وهم يحملون على أكتافهم هموم الدنيا ، وتتمركز في نظراتهم عتمة يصعب التعبير عنها .

كنت أفق على جانب الطريق محاولاً أن أتابع الحركة في السوق من بعيد ، تعتصرني أنا الآخر الوحشة والكآبة ممتزجتين بشيء من الخوف .

مفردات المكان تتغير في الأحلام والكوابيس ، بدرجة أو أخرى يحتفظ المكان إلى حد ما بروحه وتكوينه ، ولكن تفاصيله تتلقى تغييرات شتى .. والزمان هو الآخر ينزاح عن سويته ، عن تميزه المعهود عبر رحلة الليل والنهار ، ويصير زماناً تجريدياً - إذا صحّ التعبير - يصعب عليك أن

ابتسامه ساخرة قد لا تعني شيئاً على الإطلاق، تظل معرّشة على وجهه ، وتظل شفثاه نصف مفتوحتين لكي تقول شيئاً ما .. وهو ينظر دائماً إلى الآخرين بالبلاهة المتحدية التي تكشف عن نفسها منذ اللحظة الأولى .

وكلما أدلّف إلى السوق تستفزني نظرتة هذه ، فأحدق فيه محاولاً اكتشاف شيء ما وراء «اللاشيء» الذي يحكم قبضته عليه . . فقط من أجل أن أحسّ بقدر ولو يسير من الاحترام أو التقدير إزاءه كإنسان . . ولكن ذلك استعصى عليّ ، وبقي وجهه المتسطح تماماً بالتعبير الواحد لا يكاد يقول سوى الشيء نفسه ، حتى لو امتد ذلك ملايين السنين .

أرغمت نفسي يوماً ، وأنا ألحظ إلى جواره سلة من البامياء الطازجة الشهية ، أن أسأله عن سعرها . . أجبني باقتضاب . . لم تكن تهمني البامياء بقدر رغبتني في أن أخترقه ، أن أكتشف على خارطة وجهه ملمحاً آخر غير البلاهة إيّاها . . واضطرت لشراء خمس كيلوات ودفع ثمنها الذي حدّده هو بكلمة واحدة ، دون أن أعثر على بغيتي !!

والشبان يتجهزون فرصة تردد الأب، وربما جبنه، فيزدادون إلحاحاً في استفزازه وعلى حين غفلة ينقضون عليه، ويجرونه من الدكان، ثم يطرحونه على قارعة الطريق ويقتلونه !!

كان المنظر مثيراً .. حاول الرجل أن يقاوم ولكنهم أطبقوا عليه .. كان يلوح بيديه متوسلاً إليهم أن يكفوا عنه، ألا يقتلوه .. لسانه أصيب بالشلل فلم تسعفه الكلمات .. ظل للحظات يلوح بيديه، ويرفس في محاولة للخلاص، ولكنهم ما لبثوا أن أجهزوا عليه ..

لم يتحرك أحد في السوق لإنقاذه، كأن الأمر فوق طاقتهم، وكأن شللاً عاماً أصابهم جميعاً .. الكابوس لا يرحم .. ها هنا بالذات حيث يعجز الإنسان تماماً عن الحركة .. عن إنقاذ نفسه أو الآخرين من القتل .. وحيث يستسلم، كما الأبقار والخرفان، المسوقة إلى المجزرة، لسكاكين القصابين.

لست أدري إن كان هناك أحد في السوق غيري قبالة دراما الفناء والشلل هذه .. انعقد لساني، وتسمرت عيناى على المشهد الدامي، فلم تتح لي أية فرصة على الإطلاق للالتفات ذات اليمين أو ذات الشمال .. لمعرفة ما إذا كان هناك إلى جوارى أو قريباً منى أناس آخرون .. والكابوس لا يرحم .. فيها هنا أيضاً يجد الإنسان نفسه في قلب العزلة .. لا أحد معه .. لا أحد على الإطلاق .. قبالة ما يثير الرعدة في الأوصال ..

أمعنت النظر في الابن .. كان يحدق ببلاهة في أبيه وهو يرفس الرفسات الأخيرة قبل أن يلفظ أنفاسه، دون أن يفعل شيئاً ..

أمعنت النظر فيه مرة أخرى مدفوعاً - ربما - بالخوف من المجهول، من الهول القادم، من رد الفعل الذي يجيء على أيدي البلهاء أكثر قسوة ووحشية .. أمعن في الإيغال

تحدد الوقت الذي يتشكل فيه .. عموماً، إذا لم تخطئي الذاكرة، كان الوقت أقرب إلى بدايات الفجر .. اللحظات التي تتراجع فيها ظلمات الليل وتلقي ظلالاً رمادية شاحبة على الموجودات والأشياء ..

لكن طعم الفجر الذي أعشقه كثيراً يختلف في حقيقته ونبضه عما أراه الآن .. ثمة فارق كبير بين الفرح والحزن .. بين البهجة والاكتئاب .. بين الحركة والخفقان .. وبين السكون والموات .. وللحظات حاولت أن أتحرر من مكان الحلم وزمانه اللذين ضيقا علي الخناق، لكنني لم أستطع .. ويحكممني الكابوس كقدر لا مفر منه، فاستسلم لسياله الموحش الكثيب .. ليس ثمة جدوى، ولا بد من الإذعان على أية حال، ريثما ينجلي الموقف ونجى لحظة التحرر الموعود.

التفت فأرى « الأبله » إياه .. وهو يعمل في الدكان نفسه مع أبيه .. قصاباً هذه المرة وليس بائع خضار .. حيث الأغنام المسلوخة وأكداس اللحوم تكاد تفصلهما عن الطريق الذي بدا على غير وضعه المعتاد، مصعداً إلى الشمال قليلاً، منحدرًا على حين غفلة باتجاه الجنوب .. والدكان يقوم أسفل المنحدر، والأب وابنه يُعملان سكاكينهما في اللحوم والعظام المكدسة تهشيمًا وتقطيعاً، استعداداً لبيعها للمشتريين.

لم أدهش لتحوّل بائعي الخضار والبقول إلى قصابين « فسوق المعاش » - على أية حال - كان إلى عهد قريب مزدحماً بالقصابين .. ما لفت انتباهي شيء آخر تماماً : ثلاثة أو أربعة من الشبان ذوي العضل المقتول والقدرات الجسدية غير الاعتيادية، ينحدرون من أعلى الطريق ويقفون قبالة الأب .. يتحرشون به .. لا أدري لماذا .. يسمعون بعض الكلمات القاسية فلا يآبه بهم أو يرد عليهم .. كان منشغلاً حتى شحمة أذنيه بتقطيع اللحوم مع ابنه .. ولعلّه أثر السلامة بعد إذ رأى ألا طاقة له بهؤلاء الشبان ..

بالدم من أي رد فعل آخر على الإطلاق . . رأيت به بوضوح يرسم الابتسامة نفسها على وجهه وهو يوزع نظره بين جثة أبيه والقتلة الثلاثة . . ورأيت به بوضوح وهو يمد يده ببطء إلى الساطور الذي كان أبوه قبل دقائق يهشم به عظام الأغنام المذبوحة . . يلوح به قليلاً في الفضاء ثم ما لبث أن ينحني قليلاً ماداً يده الأخرى إلى أحد الشبان الثلاثة الذين يبدو أن الرعب أفقدهم القدرة على الحركة أو الفرار . . . جعلهم عاجزين تماماً عن القيام بأي محاولة للخلاص .

سحبه بعنف فطرحه أرضاً ، قبالة تماماً ، ثم ما لبث أن اكب عليه وأمسك بساقه ، وعلى حين غفلة أنزل بها الساطور فاخترق اللحم والعظم الذي فرقع صوت تكسره في أذني كذير السوء . .

أراد الشاب أن يصرخ فلم تسعفه حنجرتة . . كان قد دخل هو الآخر في دائرة الشلل ، وكل الذي كان بمقدوره أن يفعله في مجابهة عنف الساطور وهول الألم ، أن راح يرفس فيما تبقى من ساقه . . دون جدوى .

نظرت إلى الابن كالمشهود ، وسرت رعدة الرعب في أوصالي ، لكن ما كان يطمئنني بعض الشيء أن ثمة حاجزاً ما ، لا يكاد يرى ، كان يفصلني عن المشهد كله . . لعلي كنت أدرك ، بشكل من الأشكال ، أنني كنت أحلم وأنني واقع في إसार كابوس لا يرحم ، لكنني - على أية حال - لست أحد أبطاله ، وإلا وجدت نفسي مرغماً على الدخول في دائرة الموت وانتظار الدور الدامي أسوة بالآخرين . وكنت فضلاً عن هذا - أحس بأن الأبله يعرف مع من يتعامل ، وبمن سينزل الساطور . . إنهم العصبة التي أهانت أباه وقتلته قبل لحظات . . وأنا ، وكل المتجمهرين الذين لا يكادون يروون من حولي لسنا طرفاً في المذبحة .

وسرعان ما امتزج الرعب بحالة تقزز كادت تقذف بما في جوفني وأنا أرى الابن يتلذذ برؤية نثار اللحم البشري

المفروم على حافة الساطور وبنظرة أكثر بلاهة وتحدياً واستفزازاً . . نظرة مترعة بالتشفي والحقد والرضا والارتياح ، راح يعاين الساطور ثم ما لبث أن يمد يده لكي يدفع اللحم المفروم بإبهامه وسبابته ببطء ، ماراً بهما على الحافة من أقصاها إلى أقصاها ، وهو يوزع نظراته فيمن حوله ممتزجة بالابتسامة إياها التي ظلت تلاحقني الأسابيع الطوال .

أحمد الله أنني استيقظت ، متحرراً من الكابوس ، قبل أن أتابع الدور وهو يمضي إلى الآخرين . . كل ما أذكره عن اللحظات الأخيرة أن الضحية ظلت ترفس بما تبقى من ساقها المهشمتين حتى لفظت أنفاسها ، وأن الأبله كان ينزل ساطوره بين الحين والحين بأقصى درجات البطء ، ولكن بعنف أسطوري يعرف كيف يجعل الشفرة تخترق العظم فتصل أسماع الآخرين بفرقة تنبثق من خارج دائرة الأصوات المألوفة بحيث إن نسيانها يكاد يكون مستحيلاً !!

دفعني الفضول وربما الرغبة الحادة في التحرر من ضغط الكابوس ، أو التحقق من دلالاته في دائرة الواقع نفسه ، إلى أن أهرع إلى السوق بمجرد طلوع الشمس . . اجتزت المدخل الواسع على وجل ، التفت قليلاً إلى يساري حيث يتبع دكان الأب وابنه . . السلال نفسها مصفوفة بعناية ، والخضار الطازج معروض فيها كالمعتاد . . الأب منهمك في إفراغ ما تبقى من الأكياس ووضعها في السلال .

بحثت عن الابن فلم أجده . . التفت ذات اليمين وذات الشمال لعلي أعثر عليه عند هذا الجار أو ذاك . . أمعنت النظر في ملامح الأب فإذا بخطوط من الحزن تكسو وجهه . . لم أشأ أن أسأله ، كأن دافعاً ما ، دافعاً لا يقاوم كفتني عن السؤال ، رغم رغبتني الجازفة في أن أعرف أين هو ولماذا لم يأت . . ؟؟ عزيت نفسي بأن قلت : فيما بعد . . فيما بعد . . قد أعرف كل شيء .